منهجية التغيير الإسلامي

مقدمة عامة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين.

وبعد:

ليست رؤية الحركات الإسلامية ومناهج تغييرها وتربيتها للأفراد والمجتمعات اليوم عملا وإنجازا جديدين وليس التنظير والتصور عملية إنشائية وإبداعية مستقلة بذاتها، بل إنّ كل ذلك من مناهج ورؤى ونظريات أعمال مستقاة من تجربة الأمة الإسلامية الطويلة ومن القران والسنة أوّلا، فكل محاولة فكرية أو عقدية أو حركية لا بد لها أن تركن إلى مرجعيات وأصول تشدّها وتقوّيها وتقوّمها وعليه فإن كل تصور لن يزيد على أن يستلهم من الإنجازات التاريخية السابقة ما يقيم عوده على جميع المستويات وما يصوّب مساره في كل حين. وأية جماعة مهما ادعت لنفسها من مواثيق وبنود فإنها لا تزيد على أن تستلهم تصورات تقرّب بها مقاصد الشرع وركائز أركانها للأتباع والأشياع.

من كل هذا نخلص إلى أن هذا التصور التقريبي لطرح الجماعات ليس إلا محاولة لتنزيل الخطاب الشرعي العظيم السامق الراقي على مساحة إدراكنا التاريخي وفهمنا المحدود لما يحدث حولنا.

فالميثاق أو البيان التأسيسي أو الرؤية أو التصور ليسوا جميعا إلا عقدا من المبادئ أو المفاهيم يتعاقد عليه جماعة من المؤمنين في طريقهم إلى التغيير الإسلامي المنشود، وهذا العقد لا يجب أن يتحوّل إلى عقال ولجام يلجم الحركة الإسلامية ويوتدها. بمعنى أن الجماعة التي تضع ما تضع من بنود ومواثيق لا يجب عليها أن تختزل التصور والمنهج فيما وضعت فقط، بل يجب عليها أن تطلب الحق والصواب حتى تأخذهما من مصدرهما، ويجب عليها أيضا أن تدور مع رحى الشرع حيث دار أُخذة في الاعتبار

مقاصده وما جاء به من مصالح للعباد عاجلة يقوم عليها معاشهم وآجلة تتحدد بها أخراهم..كما لا بد من التأكيد على أنّ غياب هذا الميثاق أو هذا النوع من التعاقد الفكري والمنهجي في الجماعات أمر مذموم يفتح الباب للفوضى والتشرذم فينفرط العقد وتتعطّل المصالح.. نريد أن نقول في نهاية هذه البداية أنّ تصورا كهذا أو غيره ليس إلا وليد جهد بشري غايته المساعدة على تقديم أو اقتراح فهم مشترك للشرع وعمل متّحد في الواقع، وهو في كل ذلك محكوم بالقرآن والسنة لا حاكما فيهما، مؤطّر بمصالح العباد لا مؤطرا لها.

الإطار التاريخي :

تنشأ الحركات الإسلامية وفي أذهان باعثيها جملة من الهموم والاهتمامات المشتركة التي فرضها الواقع عموما، هذا الواقع متعدد في دوائره ومتعدد في دلالاته، فالواقع العالمي والإقليمي والمحلي تغشاه سحب وغيوم من الكفر والظلم، فالعبادة في أغلبها لغير الله، وسائر ميادين الحياة تهيم في كل واد غير وادي الإسلام.. وإذا كنا ندرك طبيعة المجتمعات غير المسلمة ونفهم طبيعة بعدها عن الله وشرعه وذلك لعوامل عقدية وتاريخية وواقعية فإن البلاء الأكبر والمصيبة الأجلّ يكمنان في واقع الدول المسلمة التي تحولت إلى مرتع وناد لكل أشقى انبعث ليفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل. فقد ولّت فلول المستعمرين الصليبيين تاركة قطيعا من الحكام المتغلبين المتعلّمين في مدارس المستعمر الفكرية والعلمية والعسكرية وأصبحت بلادنا الإسلامية غريبة على أرضها، جريحة في دينها، كسيرة لا تعرف كيف تخرج من الظلمات إلى النور قد حكمها حكّام غلاظ شداد لا يرقبون في إسلام ومسلمين إلا ولا ذمة فجاسوا خلال الديار وخرّبوا العقول والحصون واعتمدوا في كل هذا مناهج تضليلية متكاملة شاملة حتى كادت تسدّ كل ثغرة للخير، فأفرغوا المناهج التعليمية من أغلب الأبعاد الإسلامية والمقومات التي ليس لنا بدونها نهوض، وجعلوا الإعلام إيلاما وجلدا للمبادئ الإسلامية العبقة فأمروا بالفاحشة ونهوا عن المعروف وأخرجوا من الإعلام ووسائله كل قلم ورجل متطهّر، واتخذوا شرائع من بلاد شتى تسوسهم وتقودهم إلى حكم الجاهلية... حتى إذا هبّ من كل مسجد زمرة ومن كل بلدة صفوة يريدون أن يصلحوا ما أفسد الناس من سنن الإسلام ودينه صاحت أبواق الإعلام فصلصلت سلاسل حرّاس النظام وأقسموا جميعا أنّ هذه ظاهرة عليلة لا بد أن

تداوى في السجون بالقهر والنار والحديد، فانهالت السهام على الذين نادوا بالإسلام وتشردت العائلات وحوصرت وقوتلت حتى ضاقت الأرض عليهم بما رحبت وأصبحت البلاد وقد افتقدت مصلحيها وعمّ فيها البلاء ومازالت الأيام تحمل معها من الأنباء ما يحزن كل مسلم.

لهذه الأسباب ولغيرها تتأكّد ضرورة قيام الحركات الإسلامية وتحمّلها مشقّة التغيير المنشود.

ولهذه الأسباب ولغيرها يجب أن تكون هذه الحركات على قدر كبير من الفهم والانضباط وأن يكون عملها على هدى وبصيرة، وإنّا لا نزعم في هذه السطور التوفيق كل التوفيق وإنّما هو تسديد ومقاربة .. والحركة الإسلامية التي ترنو لمثل هذا الدور الحاسم في حياة مجتمعها وفي مصائر الأجيال من بعدها لا يجب أن تكون رقما جديدا يضاف إلى قائمة المعادلة في البلاد فحسب بل هي تطمح أن تكون هي الرقم الذي يقلب الموازنة ويرجّح جانب الخير ويرشّد قابلية التمكين للإسلام، ولا يخفى علينا أن تجربة الحركة الإسلامية عموماً لم تكن مكافئة لواقع الفساد والتحدي بكل أبعاده ولم تعرف كيف توظّف رصيدها الشرعي القويم والتاريخي الثريّ والبشري القويّ في حسن إدارة المعركة مع الكفر وفروعه، لذلك يجب أن تطمح الحركة الإسلامية المتكاملة إلى أن تدير المعركة بالإمساك بكل خيوطها وأزمّتها وذلك بالإعداد للاحق وبالاستفادة من السابق.

<u>خصائص الجماعة الإسلامية المنشودة :</u>

<u>التنظّم: استقلالية التحرّك والتخطيط:</u>

وقد أصبح من بديهيات العمل الإسلامي اليوم أن إنشاء الجماعات لأجل التمكين لدين الله تعالى عمل متحتّم شرعا وواقعا، إذ لاسبيل لأفراد متشتتين مبعثرين أن يفلحوا في التخطيط والكيد لعدوهم المنظّم المتكتّل الحريص على محاربة الإسلام محاربة منظمة، والكتابات الإسلامية اليوم -ومن قبل اليوم- تؤكد حتمية العمل الجماعي وتسفّه وتقلّل من شأن القومات الفردية للتغيير المنشود.

ولا جماعة بدون تنظيم فالتنظيم هو الذي ينتشل كل أعمالنا من قاع الفوضى والارتجال إلى علو الترتيب

الحسن ورصانة القول والعمل، والجماعة ذات التنظيم القوي هي التي تنجح في تذليل المصاعب واهتبال الفرص، والبنيان المرصوص والعمل الدؤوب هما من الدعامات التي تحافظ على سير الجماعة، وليس المقام هنا لشرح المسائل التنظيمية بل لهذا الأمر نظر وتحقيق في غير هذا الموضع وإنما الخلاصة من هذه التوطئة أن مسألة التنظيم والتنظّم علامة فارقة ومؤشر قوي على جدية الأفراد وحماسهم للعمل وكلما غابت هذه الجدية أو ضحلت انعكس ذلك على البعد التنظيمي سلبا.

إن صفة الاستقلالية صفة لازمة لكل جماعة تضع على عاتقها مهمة العمل لدين الله، فالاستقلال حتمية حركية يندب إليها الفهم السوي للشرع والتوصيف الصحيح للواقع، فمبرر وجود الجماعة المسلمة هو الذي يؤدي إلى حتمية الاستقلال التخطيطي والحركي وإلا فلا مجال لقيام تنظيم يستنسخ تجارب غيره فيعيدها بغثها وسمينها.

إن تقويمنا للحركات الإسلامية العاملة التي قامت قبلنا ومؤاخذتنا لها على أخطائها هو الذي يلزمنا بتأسيس بديل عملي مغاير للمنوالات الحركية السائدة، إذ أن الأهداف التي نروم أن تحققها الحركة الإسلامية ونروم تحقيقها جميعا - إرضاء ربنا سبحانه بالتمكين لدينه - بالفهم الذي نعتقد في قربه من الحق لا بد لها من وعاء خاص مستقل يتجرد لصناعتها وصياغتها وتحسّس السبل الموصلة إليها. على أن مبدأ الاستقلال في التحرك والخطية لا يعني أن تنغلق الجماعة وتجعل بينها وبين الفعاليات الإسلامية الأخرى جدارا من القطائع والمعاداة - كما سيبيّن لاحقا - فالحكمة ضالتنا، والتاريخ أيا كان هذا التاريخ إنما يرشح تجارب وعظات وبراهين.

والاستقلال أيضا يجعل الجماعة المسلمة في مأمن من الصراعات التي قد تعصف بالأجسام والتجمعات ذات الولاءات المتعددة والمختلفة، فساحة الولاءات متقلبة جدا ولا ينجو من الذين دخلوها إلا القليل.

ولا نرى أن يكون في الجماعة الواحدة أجنحة وخطوطا متوزعة ذات اليمين وذات الشمال فذلك معطّل للمسيرة متلف للجماعة ومهدر لجهودها.

<u>إسلامية الفكرة :</u>

وصفة الإسلامية معلومة الدلالة لدى القاصي والداني وهي ترمز إلى عمق الانتماء والاتصال بالإسلام العظيم، بالقرآن، كلام الله عز وجل وبالسنة، سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبحركة الأنبياء جميعا في مجادلتهم ومناجزتهم للباطل عليهم جميعا السلام.

و إذا كانت الإسلامية صفة لجماعة معينة فلا يجب أن تقصرها على تنظيمها فحسب، أو تضيّق الوصف فتمنع مخالفيها المعتبرين من التسمي بها، بل إن كل من عمل عملا أراد به التمكين أو الذود عن دين الله وكتابه الكريم وفقا لشروط صحة العمل (الإخلاص والصواب) فهو من العائلة الإسلامية الكبيرة وإن اختلفوا في الفروع و الجزئيات.

الفهم الشمولي :

وكثيرا ما تنعت بعض الجماعات العاملة نفسها بنعوت من مثل "المجاهدة" أو "الداعية" وغيرها من النعوت - وهذا للذكر لا للحصر- أو غيرها من الصفات ذات البعد التخصيصي الاختزالي.. وما نراه في هذا السياق أن الإسلام بدرجة أولى والعمل الإسلامي بدرجة ثانية أعظم بكثير من هذه الملحقات أو النعوت التي قد تختزل التنظيم والجماعة في بعد واحد فتضخّمه وتجعله قطب الرحى.

إن القتال أو الجهاد ركن ركين في هذا الدين وأسّ عظيم لا ينكره أحد من العاملين .. ولئن غاب أو تضاءل حضوره في ساحات تاريخنا الحديث والمعاصر فقلّ وصار غائبا عزيزا فلا ينبغي لنا أن نحتفي بهذا الغائب ونهمل كل تلك المقومات والأوتاد التي قام عليها ويقوم عليها دائما صرح الإسلام، فالجهاد سهم من سهام الإسلام، والتربية سهم آخر والتعليم سهم وهكذا .. فلا ينبغي أن يكون المنهج منهجا تجزيئيا يقدّم ويبجّل صفة على أخرى لازمة، وهذا الفهم الشمولي هو الذي يتيح لنا أن نتعامل مع سعة الإسلام العظيم دون تشديد وتضييق على النفس.

إنّ الإسلام نظام حياة فلا يستتب نظام إلا إذا قام على كل سيقانه.. وهذا الفهم يجنّبنا أيضا ذلك البتر الذي يدعيه كثير من الناس حين يفصّل العهد النبوي إلى فصول يتخذها مسوّغا لفهم ناقص للدين وللعمل له.

صحيح قد تقتضي مرحلة ما إيلاء جانب من جوانب العمل أهمية أكثر وصحيح أيضا أن تحسن أي جماعة فهم لحظتها التي تعيشها وتحدد لها أبعادها ومقتضياتها البارزة، ولكن الذي يعاب هو أن نجمّد الفهوم والممارسات لأجل أن ننتصر لتصور مسبق ممجوج ولأجل أن ننصر مثالا ونموذجا صيغ في الأذهان ولم تسنده إشارة من القرآن ثم شهادة من زمان. إن استلهام الشريعة استلهاما متوازنا بعيدا عن التحجيم والتضخيم هو الذي يضمن بإذن الله لكل تجمع المسيرة المتوازنة الثابتة البعيدة عن مزالق التنطع والتهور والجمود.

وهكذا فعدم التضخيم والشمول في المنهج الحركي مبدأ حياتي قبل ذلك، فتقويم التاريخ والحركات والدلالات لن يستقيم إلا إذا كان النظر مدركا لا بعاد كل الصورة، فالسنن التي تحكم الظاهرات النفسية والاجتماعية والتاريخية والدينية سنن متراكبة متناسقة يفضي بعضها إلي بعض ويختلّ بعضها لاختلال البعض.

إن التوازن في الفهم كما اقتضى منا على المستوى الحركي المنهجي أن لا نضخّم جانبا على اخر وان نفهم الإسلام فهما شموليا فإنه يقتضي سلوك نفس المسلك في المجالات الأخرى ولا سيما في المسألة الفقهية حيث أن الجماعة الواعية هي الجماعة التي لا تحضّ على تعميق ظاهرة التعصب المذهبي ولا تلزم أحدا باتباع مذهب إلا ماحتّمه الدليل.

إن فقهاءنا الكرام خلّفوا لنا بحارا من الفقه وأصوله يسير فيها باغي العلم وينهل فلا يشبع، فعلام نختزل ونحشر هذا البحر العظيم في حيّز صغير يضيّق ما وسّعه الله علينا.

على أنّ هذا الكلام لا يجب أن يفهم انه دعوة إلى تتبع رخص المذاهب حتى تضيع عزائم الدين فالواجب في هذا أن يحرص المسلم على اتباع ما صح فيه الدليل، ولسنا أيضا ممّن يذمّون الالتزام بمذهب معين لأن مسألة التقليد والاتباع والاجتهاد مسألة فصّل فيها أصحاب هذا العلم فلتطلب في مظانّها.

العمل والدعوة إلى الإسلام :

ولما كانت غاية الجماعات الإسلامية إعلاء كلمة الله وإرضائه سبحانه وتعالى بتعبيد العباد له وإزالة كل معبود غيره دعتنا هذه الغاية الشريفة إلى النظر في الرجال الذين سبقونا إلى هذا العمل والى النظر في القواعد التي دوّنوها بعرقهم ودمائهم وتثبيت واصطناع الله لهم.

فوجدنا أن هذا الطريق طويل معبّد بالمكاره والمصاعب، أوله انخلاع عن كل دنس ذي شوكة وتمكين وآخره تخليص للنفس والأغيار من كل قيد عدا الإسلام ومن كل ربّ عدا الرحمان. وبين البداية والنهاية امتحانات وعلامات فارقات ومحطات عابرات.

ووجدنا أيضا أن البصيرة والصمود والثبات والصبر هي العيدان التي تقوى بها سفينة الحق على أن تمخر المياه وتقاوم قواصف الرياح.. فلا بد أن نلبس هذه اللامات حتى نحسن البلاء.

فالبصيرة تجعل من الجماعة مدركة لمنطلقاتها فاهمة لدين الله تعالى خالية من شوائب الجهل المؤدي إلى الهلاك ومن شوائب الاستعجال المؤدي إلى الحرمان ومن شوائب العمى عن الحق والحقائق المؤدي إلى التخبط والانكباب. والبصيرة هي التي تحوز كل فرد أو جماعة عن مصارع التقليد والتهور والغفلة. لذلك يجب أن تكون البصيرة حاضرة في الفهم والعمل والتقدير، في الكر والفر، في الضراء والسراء، في كل هذا الطريق التي يجب أن ندرك كل علاماتها وان نسترشد عن كل معرّاتها وان نمشي فيها على ضوء نور منبعث من الكتاب والسنة.

ومتى غشيتنا هذه البصيرة التي هي منحة من الله لمن يشاء من عباده توضحت لدينا معالم الطريق وتمثلت لنا دقائقه وعوالمه فنضعها في حجمها الذي هو حجمها ونقدّر لها تقديرها المواتي، فلا تزلزلنا بعد هذا المصاعب أو تلك المخاوف، ولا تفتّ من عزمنا هذه المكائد أو تلك المفاوز.

إن الصبر والثبات والصمود صفات مكتسبة ومترتبة عن البصيرة فالجماعة التي تعرف حق الله عليها فتبلغ رسالاته لا يحق لها أن تركع لغير الله والجماعة التي تقرأ في القرآن والتاريخ مآثر المنذرين ومصارع الظالمين لا بد لها أن ترفع سيف الصبر وان تركب طريق الصمود فتثبت ويثبّتها الله تعالى..

والصبر أنواع: صبر على الطريق .. صبر على الأخ الرفيق .. وصبر على أذى الناس.. وصبر على الامتحان .. وصبر في وعلى إدارة الصراع الطويل وصبر على المنهج الصحيح وإن بدّل المبدّلون وانزاح المنزاحون.

وكل الناس في خسر وكل الجماعات في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

عقيدة أهل السنة والجماعة :

ليس لنا إلا الانتساب إلى هذه العقيدة التي أثبتت أحقيتها وصفاءها وخلوّها من دنس المبتدعين والمحرّفين العقيدة التي صمدت طوال القرون في حين زالت عقائد الذين حرّفوا كتبهم وجعلوها قراطيس، العقيدة التي أرادها الله خاتمة خالدة من اعتقدها وعمل بها فقد افلح ومن جحدها وكفر بها فقد ضل وما اهتدى.

هذه العقيدة هي التي يجب أن تتخذ محورا للحياة ومنجاة لما بعد الممات، عقيدة لا نفصل فيها بين إيمان وعمل، فليست العقيدة مسالة اعتقاد وخواطر فحسب وليست هي طقوسا خالية من الفعال، لا نجعل من عقيدتنا نسيا في دهاليز البواطن وعلى رفوف المكتبات، هذه العقيدة هي التي حركت الشعوب من بعد عميق السبات، وحررت العبيد وأكبّت كل جبار عنيد، هي لازمة ملزمة لنا في كل شعب الحياة، في المشاعر والخلجات وفي الحركات والسكنات: قول وعمل، انتساب وانقياد وتصديق وتحقيق. هذه العقيدة هي التي أنضجت أولئك العرب الأوائل فتفتّقت الافهام والأذهان وقدّمت لنا كل هذا الرصيد العظيم الذي لا ننفك ننهل منه كلما أصابنا ظمأ واعترانا فتور.

وهذه العقيدة كما قلنا سلفا علم وعمل قبل أن تكون ميدانا للحرب والسجال والتأليف والتعقيد والتصنيف والإيغال في التدقيق كما فعل ذلك كثير ممن ضمّ تاريخها.

وعندنا أن هذه العقيدة يجب أن تستقى من أمهات مصادر أهل السنة والجماعة وهذا هو عنوان السلف والطريق التي إنتهجوها. وأما غيرها فقد بان ما فيها من مزالق تعظّم أحيانا وتهون أحيانا أخرى.

المنهج :

إن الفهم والمنهج يمثلان طرفين متلازمين يصعب الفصل بينهما على المستوى العملي أما نظريا فالفصل لا يظل على نفس درجة التعقيد والصعوبة ذلك بأن منهج التعامل مع النصوص والظواهر والأحداث هو انعكاس لظلال الفهم فالفهم هو الذي يشكّل ويرسم معالم المنهج ومن ناحية أخرى يصبح دور المنهج بعد ذلك تحقيقا لذلك الفهم وإخضاع المواد المدروسة أو المعروضة له.

ولمّا كان فهمنا للإسلام والعمل الإسلامي فهما شموليا ومتوازنا كان لزاما علينا أن نصوغ لذلك الفهم منهجا يطابقه ويجانسه لئلا يتنافر المقصد مع المسلك والوسيلة، فمن الضروري أن يتوفر لهذا الفهم جملة من الأدوات ترسّخه وتجذّره.

فالبعد التربوي والمنحى التأصيلي والمسلك الجهادي كلها عناصر هذا المنهج تتضافر لتشكّل جميعا منهجا متكاملا أساسه القرآن والسنة.

فالتربية والتكوين هما الوسيلة المثلى للحفاظ على معادن الأفراد والجماعات، والإسلام عموما إنما جاء ليطهّر النفوس ويزكّيها ومدار حركات الأنبياء هو تزكية النفوس وهجر الأرجاس، وهذا البعد التربوي هو الفرق العظيم بين المشروع الإسلامي وغيره من المشروعات البشرية الأخرى و وبدونه تتحول الجماعات إلى تجمعات جوفاء لا تعرف معروفا ولا تنكر منكرا.

والجماعة التي لم تربّ أفرادها ولم ترسّخ فيهم معاني الإسلام العظيمة أنّى لها أن تربي المجتمعات وأن تؤدّب الحضارات. إنّ مهام الجماعات الإسلامية مهام مزدوجة وخطيرة من وجهة نظر تربوية.. فعليها أولا أن تتابع ترقية أنفسها بالتربية والتعليم وعليها ثانيا أن تقاوم وتدفع التدني الذي يكتنف بيئاتها التي تعيش فيها.

ولابد من الإشارة هنا إلى ضرورة تأصيل المسألة التربوية تأصيلا إسلاميا أصيلا خاليا من شوائب الغلو والانحراف والاستهتار فالعودة إلى المنهج القرآني والنبوي في التربية والتطهير هي العامل الحاسم لضمان توازن الشخصية الإسلامية وتنشئة أجيال سويّة سليمة حاملة للرسالة لا عبء عليها.

والتربيـة ليسـت مرحلـة مكيـة أو مدنيـة فحسـب، ليسـت التربية نقطـة عـابرة تقطعهـا الجماعـات بـل هـي مشـروع طويل بل هـي المشـروع كلـه وان اختلفـت الوسـائل عـبر المراحل وان اختلفت التطبيقات عبر التجارب.

إن عظمة المنهج الذي يأمر الإسلام باتباعه وعظمـة الفهـم الذي يسير علـى ضـوئه المسـلمون العـاملون لا يمكـن أن يتـأتى إلا بقطـع العقبـات وركـوب المخـاطر، أن المنهـج الإسلامي منهج ربـاني فـي مبـدئه ومنتهـاه ربـاني بأهـدافه الوافية ووسائله الشـريفة وأجـوائه الإيمانيـة العطـرة.. إن هذه الأمانات لا يمكـن أن تتحقـق بمجـرد الأمـاني والجهـود المترددة، أن الثورة التي يطرحهـا الإسـلام ثـورة عارمـة أو هي انقلاب كاسح، انقلاب في القيم والسلوك وفـي الحيـاة عامة، وهذه الثورة لا يمكن لها أن تتحقق إلا بمنهـج جهـادي جذري يقتلع جـذور الفسـاد ويفتـن المعـادن فيـذهب الزبـد جفاء.

قد يعـتري المسـلمين فـترات مـن الضـعف والهـوان، وقـد يستلزم هذا الفتور والضعف من المسلمين أن يـتريّثوا وأن يحنوا رؤوسهم للعاصفة ولكن كل ذلك مرحلة عابرة وأجـل معدود..إن هذا الدين يأبى أن يلـين ويسـتكين ويتصـالح مـع واقع لا يحتكم إليه ومع قيم ومعايير لا تنزل على حكمه.

ليس البعد الجهادي الجذري في الحركات الإسـلامية ورقـة نرفعها حينا ونخفيها حينـا آخـر، وليـس هـو ورقـة اليائسـين المشاغبين يدنّسونها سـفها بغيـر علـم.. إن هـذا البعـد هـو حياتنا مادمنا نروم الحياة العزيزة وهو ممرّ التمكين مادمنـا نروم التمكين.. إن الجهاد مدرسة عظيمة تعلّم تلاميذها كل صـنوف الحـب والبغـض فـي اللـه وتعلّمهـم القسـوة علـى الجبّارين والرحمة بالمستضـعفين، إن الجهـاد الـذي نفهمـه هو ذاك الذي يتنزّل في إطار فهم شامل لكل أبعاد الإسـلام وهو بعد من أبعاده، ليـس الجهـاد منظومـة مسـتقلة بـذاتها عن غيرهـا بـل هـو عنصـر ينتمـي إلـى مجموعـة أكـبر هـي الإسلام، وهو أداة وليس الغايـة، فلا يمكـن أن نفهـم معنـى البعد الجهادي الجذري إلا في إطار الفهم المتكامل للإسلام الذي يعطي لكل العوامل الاعتبار المطلوب ولا يضخّم جانبا على آخر.

الأهداف :

إن هدف كل مؤمن وغـايته السـامية فـي هـذه الحيـاة هـي إرضاء الله عز وجل، وهذا الهدف وهذه الغاية لا يتأتّيان مـن فراغ وتسويف بل الأمر اعظم وأجلّ من ذلك، إنهـا مسـيرة طويلة تتخذ كل حين ومقام أشكالا من الإنجاز والتجلّيات.

ورضا الله سبحانه وتعالى إنما يكون أساسا بإعمال وتثـبيت العقيدة الإسـلامية النقيـة الشـاملة فـي الحيـاة عامـة هـذه العقيدة التي تجرّد الوحدانية لله تعـالى وتحـرّم العبوديـة إلا له وتجعله تبارك وتعالى الحاكم والآمر والولي والناصر.

وليست العقيدة الإسـلامية طقوسـا وضـروبا مـن الأشـكال التعبديـة الجوفـاء إنمـا هـي ذلـك التيـار الـذي يجـري فـي شرايين كل الحياة ليجعلها ذات قبلة واحـدة وطريـق واحـد وفهم واحد، وهذا يتحقق بـأن نعيـد لهـذه العقيـدة صـفاءها الخالي من كل مظاهر الشرك والدنس، إنهـا ذات العقيـدة الموحّـدة الـتي تنـزّل بهـا القـرآن الكريـم ودعّمتهـا السـنة المطهرة واحتفى بها وصانها السلف الصـالح رضـوان اللـه عليهم.

يجب أن تكون العقيدة مركزا تدور حوله حياة الناس، وهذه المركزية لا يمكن لهـا أن تتحقـق إلا مـن خلال دوائـر ثلاث: فالدائرة الأولى التي هي دائرة الأفـراد يجـب أن تبنـى بنـاء عقديا صحيحا سويّا حتى تتمكن مـن حمـل الرسـالة وترفـع قواعـد المشـروع الإسـلامي وتمضـي بـه قـدما وان تعثّـر المكبّون وارتاب المرتابون ونكص المتثاقلون.

وحينما تستوي دائـرة الأفـراد شـروطها وتينـع ثمـرة سـنين الكد والحرث الدؤوب ينتقل بناء العقيدة إلى ميـدان أفسـح وأخطر وهو الدولة، والدائرة الثانية هـي الـتي تتجسـد فيهـا مركزية العقيدة، فالدولة هي الغشاء والغطاء الـذي يحفـظ نواة الأفراد من الذوبان في عقائد الأغيار وأنسـاقهم، وهـي الدرع الذي يذود عن العقيدة التي ستصوّب لها النيران مـن كلّ مكان ومشروع الدولة المسلمة مشروع عظيـم وشـاق تفكّر فيه أجيال وتخطط له أجيال وتعمل لـه وتمـوت دونـه أجيال ولا يناله إلا من كتبه الله له فالنصر من عند الله، إنهـا بذرة تستقرّ في رحم الأحداث والتضـحيات والمعـارك وإنـه وليد يسبقه مخاض شديد وجهاد أليم.

والدولة المسـلمة لا تقـوم إلا علـى أنقـاض حكـم الجاهليـة فهما لا يتقابلان إلا ليصطرعا ولا تضع الحرب بينهما أوزارها حتى تكون الغلبة لأحدهما على الآخر، لذلك يخطئ من يرى

أن تتقاسم دولة هذه العقيدة النقية بعض نواحي الحياة مع حكم الجاهلية، ويخطئ من يحسب أن حكم الجاهلية قد يتنازل ويهب لهذه العقيدة عرش التمكين والتسيير بغير جهد ونصب.

أما الدائرة الثالثة فهي دائرة الخلافة الإسلامية، الخلافة الإسلامية ذلك المكسب التاريخي الذي فرّط فيه المسلمون حين أزاحوا عقيدتهم عن موقعها المركزي وجعلوها نسيا منسيا بعيدة عن الحكم والنفوس والعقول، هذه الخلافة هي التي حفظت بيضة الإسلام على مرّ تاريخنا الزاهر وإن انتكست الهمم أحيانا وان ضعفت الشوكات أحيانا، إن هذه العقيدة لا يسعها محيط الفرد فقط وان هذه العقيدة عظيمة تضيق عنها حدود الدولة وهي عظيمة لان الله لا يأبى إلا أن يتم نورها ومركزيتها في حياة أمة الإسلام عامة ولتصبح الحلقة القوية والركن الركين في هذه الأرض، إن العقيدة الإسلامية في بعدها الكوني هي ملاذ البشرية جميعا وسبيل خلاصهم فكيف يهنئون وهم شاردون عن الله وحكمه وكيف يهنئون وهم غافلون عن المعاني العظيمة التي تريد أن تطهّرهم وتضع عنهم الأغلال.

إن هذه الدوائر الثلاث - الفرد والدولة والخلافة - هي التي تذهب بالعقيدة الإسلامية إلى المدى البعيد الذي يحبه الله ويرضاه.

الوسائل :

قد تختلف وسائل المسلمين في التمكين لهذا الدين، والاختلاف الذي نعنيه هو اختلاف في النواحي الفنية العملية أثناء التنفيذ أمّا من حيث الجوهر والخلفية التي تفرض هذه الوسيلة وتقدّمها على غيرها فإن الأمر في هذا المستوى لا يمكن أن يكون مطلقا دون ضوابط وحدود، إن ما تقع فيه بعض الجماعات العاملة للإسلام من أخطاء يجعلنا نتأمل جيدا ما نحن قادمون عليه وآخذون به من ذرائع ووسائل لنصرة الدين.

تكتظ الساحة الإسلامية بالطروحات التي تعمل على نصرة الدين وتحقيقه ويمكن لنا أن نردّ زلات مناهج تغييرها المتقاربة أحيانا والمختلفة والمتناقضة أحيانا أخرى إلى نظرتين.
نظرة أولى جامدة يرى كثير فيها أن قاصد التمكين لا بد أن يتّبع مراحل الفترة النبوية اتباعا حرفيّا فتقسّم الأعمال

وتبعا لذلك مناهج التغيير إلى مكي ومدني واستضعاف وتمكين ونصرة ودعوة وتبليغ.. وفريق يجعل من وسائل التغيير توقيفية لا يمكن الاجتهاد فيها.

ونظرة ثانية تقتبس المناهج الوافدة من الغرب فتأخذ منها ما تظنه موافقا للدين وللمرحلة وترد منها ما تظنه مخالفا للدين والمصلحة، وهي نظرة تجمع شركاء كثيرين، فمنهم من يجعل المنهج الديمقراطي سبيلا للتغيير ويبشّر بالمجتمع المسلم الديمقراطي.. ومنهم من يعظم شأن الثورة الثقافية جاعلا من الإسلام خطابا للنخبة وللنخبة فقط، ومنهم من تغريه الشعارات الفلسفية البراقة فيتعاطاها مناديا بالعقل قبل النقل أسوته في ذلك المعتزلة ومن شابههم من المعاصرين أو المقبورين.

ولاريب أن هذا التفصيل عامّ وحجم الخطأ لا يستوي عند كل هذه الفئات، كما أنّ ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه.

ونظرتنا لمنهج التغيير ليست نمطية أو جامدة إنها نابعة من فهمنا الشامل المتوازن لهذا الدين.

فهناك خطوط لا يجوز لأي جماعة أن تتعداها، وهناك مناهج لا يمكن لها أن تقربها، إن التغيير الإسلامي المنشود لا يكون إلا بطرق الأبواب والسبل الرشيدة المؤدية إليه بإذن الله،فالواجب أن نرفض ونخلع تلك المناهج المستوردة من العقائد والفلسفات الأخرى سواء كانت شرقية أم غربية، وذلك كمثل المنظومة الديمقراطية وما اتصل بها فعمقها الفلسفي والعملي مؤسّس على مقولات باطلة كالقول بأن " ما لله لله وما لقيصر لقيصر" وهي وغيرها مقولات أطنب الباحثون المسلمون في ردها والتشنيع عليها...وقد جرّبت هذه المناهج في غير بلد من البلاد الإسلامية فلم تؤت ثمارها المرجوّة.

والواجب أيضا أن نرفض ونخلع كل فهم منمّط لحركة الإنسان، الفهم الذي يجمّد التاريخ فلا يدرك ما حدث فيه من أقضية، ويجمّد الشريعة فلا يدرك ما أودع الله فيها من سعة ويسر ووضوح ورشد في التعامل مع الأحداث والأحوال.

ونحن حين نقول بالفهم الشامل الموازن للإسلام فإنّا ندرك أن منهج التغيير لابد أن يكون كذلك، وهكذا وعلى هذا

الأساس نؤمن بالجهاد منهجا متكـاملا للتغييـر: الجهـاد مـن حيث هو قتال لأعداء الله، وإعداد لهـذا القتـال، ودفـاع عـن المستضعفين، ومدرسـة لتربيـة الأجيـال تنـزع منهـم مذلـة التولي والقعود وتقيهم فوران التهـوّر والانـدفاع.. وتعلّمهـم فنون العلوم الشرعية والفنية والمدنية لينهضـوا بواجبـاتهم أتمّ النهوض.

التنظيم و الإعداد :

والتنظيـم الحركـي كمـا أسـلفنا الـذكر هـو الحـافظ لهـذه الطاقـات وهـو الـذي يجنّـدها لعظيـم المهمّـات،والتنظيـم القوي هو الذي يقدر على تحقيق ما أنيط علـى عـاتقه مـن أمانات وأدوار، لذا وجب أن يكون للتنظيم هيبة في نفــوس الأفراد، ويجب أن يشـعر كـل عنصـر فيـه أن أمـره وفلاحـه مرتبطـان بهـذا الجسـم المنظّـم، يدمـج فيـه أحاسيسـه وأحلامه، أفراحـه وأتراحـه، ودون هـذه المعايشـة والعلاقـة الحميمة يتحوّل الفرد إلى موظفٌ آلي والتنظيم إلـى إطـار جامـد لا تسـري فيـه روح التعـاون والبـذل والغيـرة علـى الإنجاز.

وقوة التنظيم هي قوة التخطيط فيه، فكلما اتضـحت مهـام الأفراد وحدودهم وأدوارهم اتّسق العمل وتناسـق واشـتغل الجميع كل على ثغرته يحميها ويحسن فيها، وكلما اتضـحت الرؤية والسياسة التي تحكـم التنظيـم الـداخلي مـن آليـات وحدود وتخطيط زال الغبش من أعين العاملين واتضح لهـم الهدف فساروا على الدرب غيـر مضـطربين ولا متخبطيـن، وبـالعكس فكلمـا ضـعف التخطيـط وتشـابهت وتشـابكت المهام أو غابت وافتقدت التفصيلات والحدود اهترأ التنظيم وتآكلت مكوّناته كما يتآكل أولاد العنكبوت وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت.

فتحديد برامج الجماعة وخطة تحركها عبر المراحـل وتوابـع المهـام بحسـن وشـورى وعنايـة ووجـود ضـوابط رادعـة ومرشدة للعاملين هي عناصر قوة التنظيم ومبعث فعـاليته واستمراريته.

إن الإعـداد الجهـادي فـرض متحتّـم علـى المسـلمين كافـة لحماية بيضة الإسلام ولصـد الصـائلين والحكـام المحكّميـن لغير كتاب الله، والحركة الإسلامية وهي التي تمثّل الطليعة القيادية للمجتمعات والرمز التغييري لابد أن تعي جيدا هــذا

الجانب الحيوي الذي يتوقف عليه كل ملامح مستقبلها ويتحدّد وفقا له مآلها وفعلها على أرض الواقع.

والجماعة الساعية إلى التغيير وتوطيد بديلها الإسلامي لابد أن تهيئ لهذا الأمر ما أمكن من الزاد حتى تؤمّن طريقها وحتى تأمن مفاجآت هذا الطريق ومنعرجاته.
فالإعداد العقائدي يمثّل رأس المال في الجماعة المسلمة وهذا أمر من البديهيات المعلومة لدينا إذ أن كل أعمالنا ومساعينا وأحلامنا مبنية على قاعدة العقيدة الإسلامية، ولولا هذه العقيدة الصحيحة الرائعة لما عرف الإنسان دوره وموقعه في هذه الحياة، لقد ظل كل المرسلين عليهم السلام يلقنون اتباعهم بصبر ومداومة مبادئ هذه العقيدة وظلوا أيضا يتابعون ما غرسوا من مبادئها لئلا يطرأ عليها بمرّ الزمان والخطوب خلل أو فتور.

ولعل من توابع هذه العقيدة ومشمولاتها أن تحرص الجماعة على أن يتعلّم أبناؤها العلوم - بحسب الحاجة والقابلية والاختصاص - التي انبثقت عن هذه العقيدة: كالفقه وأصوله والقرآن وعلومه وغيرهما.. فالعقيدة الواضحة الصافية والزاد العلمي الوفير هما اللذان يمثّلان جهاز المناعة في كل جماعة فيحميانها من الشرور المترتبة على الجهل بالشريعة وأحكامها، وإن خلوّ الجماعة من صفات العلم والفهم الشرعي لهو ثلمة خطيرة في بنائها وفجوة عظيمة في صفوفها لا يعلم قدرها إلا من عاين ودرس مصير الحركات التي افتقرت في مسارها إلى هذه الخصال فلم تتماسك وخبطت خبطا واهترأت وتشتتت.

وفي موازاة العلم الشرعي الذي يحتل في الجماعة صدارة الأمر يتوجّب على الجماعة أيضا أن تعدّ أفرادها إعدادا ماديا كافيا وموازيا لواقع التحدي ولأهدافها.

فلو كان همّ الجماعة الأوحد الدعوة إلى الله بمفهومها التبليغي فحسب لكفاها الزاد الشرعي ولما احتاجت إلى غيره من العلوم..

لو كان همّ الجماعة الأوحد التغيير الثقافي النظري الموجّه إلى النخب فقط لكفاها كتب الفكر والسياسة والفكر والفلسفة وهكذا.

ولكن إذا ما كان همّ الجماعة التغيير الشامل لكل نواحي الحياة فقد تحتّم عليها أن تهتم بعد العلم الشرعي بالإعداد المادي لحركة التغيير.

فلإصلاح الجانب العقدي ألمحنا إلى وجوب تعلم العلم الشرعي وإعداد الطاقات التي تنهض بهذه المهمة في مرحلة الإعداد ثم في مرحلة التمكين.ولإصلاح الجانب المادي في حياة الناس ونعني بذلك المجتمع والسياسة والاقتصاد وما شابه ذلك لابد من أن تعدّ الجماعة لذلك العدة.

ولإصلاح الانخرام السياسي الذي هو رأس الفساد وبعد الحكم فيه عن الله وتسلّط السلطان فيه بالحديد والنار لابد من إنشاء الرجال الذين يقوون على مقاومة وكسر هذا الفساد، هذه المقاومة حسية بتكوين الكوادر العسكرية القادرة على فهم المعركة وأبعادها والقادرة على تنفيذ المشروع القتالي. وهذه المقاومة معنوية ثانيا بإعداد الكوادر السياسية والإعلامية والاقتصادية -وغيرها - القادرة على فهم المعركة وتوجيهها توجيها حكيما أثناء مسيرة النضال ومرحلة التمكين.

وبالإعداد العقائدي والإعداد المادي الفني تكتمل ملامح الجماعة وترتسم صورتها ارتساما متوازنا معقولا هذا التوازن هو الذي ندركه ونلاحظه في حركات التغيير عبر التاريخ، فإنّ هناك سننا شرعية علينا أن نتّبعها ونعمل بها وإنّ هناك سننا كونية تحكم الناس جميعا علينا إدراكها والتعامل معها حتى لا يظل سعينا كسراب بقيعة.

<u>موقف من الحركات الإسلامية :</u>

ونحن نقطع الطريق الذي اخترناه لأنفسنا، طريق التمكين للإسلام، نلتفت يمنة ويسرة فلا نجد إلا الرفاق القلائل، ولأريب أن انصراف غالبية الناس عن هذا الطريق تجعل السائرين عليه مهما اختلفت مواطنهم وتعددت أجناسهم كالعائلة الكبيرة الواحدة، يتألّم بعضها لبعض في الضرّاء، ويفرح بعضها لبعض في السرّاء، وينصح بعضها بعضا في الخطإ ويدعو لبعضها البعض بظهر الغيب.

هذه هي الثوابت التي تحكم ابتداء علاقات الجماعات العاملة فيما بينها على أنّ هذا التقارب والتجانس قد يتقوّى

أحيانا وقد يضعف أحيانا بحسب التقييم الشرعي للحركـات والجماعات والأفراد

إنّ ولاءنا ومساندتنا للحركات الإسلامية علـى درجـات،وهـو ولاء ومساندة مرتبطان بقرب هذه الجماعات من الحــق أو البعد عنه فيما نعلم.

إن الناظر في ظاهرة الحركات والجماعات الإسلامية اليوم لابد أن يضع في اعتباره أنهـا جميعـا علـى مـا نحسـب إنمـا قامت للتمكين لدين الله تعالى وغيرة علـى شـرعه ورأفـة بعباده الذين ابتعدوا عنه، ومـن هـذا الاعتبـار نعلـم أن هـذه الحركات العاملـة هـي جـزء مـن هـذه الصـحوة الإسـلامية المباركــة وإنّ علينــا أن نســاندها بالنصــيحة وتــبيين الحــق ومواطن الخطإ والزلل والانحراف، وعلينا أيضا أن لا ينقلب تعاملنا معها - في المستويات المرحلية علـى الأقـل - إلـى خصومات ومهاترات وتشنيعات- فلدى الحركات الإسـلامية من الهموم والمحن ما يصرفها عن هذا الخيار غير الحكيـم، كما أن علينا أن ندرك أن حبّنا واتفاقنا مع جماعة ما لا يجب أن يتحوّل إلى تزكية مطلقة وولاء أعمى.

إن الساحة الإسلامية اليوم تزخر بحركات عديدة منهـا مـن أعوجّ فهمها ومنها من أدرك حقائق وأخطأ أخرى ومنها مـن لا يضـنّ بجهـد لإصـلاح وتسـديد.. وإنّ أخطـاء المخطئيـن واعوجـاج المعـوجّين وتسـديد الآخريـن تفـرض مسـتويات عديدة ومختلفة في التعامل وتفـرض حكمـة فائقـة وصـبرا ورحمة.

إنّ المتأمّـل لحـال الحركـات الإسـلامية لابـد أن يضـع فـي أعتبـاره كـل العوامـل والملابسـات الـتي رافقـت نشـأتها: فعصور الانحطاط مازالت ترسّباتها تعمل فـي المجتمعـات الإسـلامية عملهـا، وسـقوط الخلافـة أوقـع بلبلـة وفوضـى وتسـاؤلات حديثـة فـي هـذا العـالم الإسـلامي، وظـاهرة الاستعمار الحديث .. وغيرها من العوامل التي ليس آخرهـا ظاهرة الحكومات الكافرة فـي الـدول الإسـلامية سـاهمت في تشكيل معـالم الشخصـية المسـلمة ومعـالم الحركـات الإسلامية التي تنشأ في هذه المجتمعات..

إنّ الحركـات الإسـلامية اليـوم تحـاول أن تنهـض مـن هـذا الإرث المظلم الثقيل وهي محاولات متعددة مترددة لا يسع المتعامل معها إلا التروي والبصيرة والصبر والنصيحة اللهم إلا فيما خالف معلوما من الدين بالضرورة.

ما نقرره أخيرا هو أن الحب والبغض في الله قد يجتمعان في قلب الرجل الواحد، والحسنة والسيئة تجتمعان في العمل الواحد، فإنه لا يخطئ إلا العاملون، وإن تقدير هذا الخطإ وحجمه هو الذي يحدد طريقة التعامل معه ومع صاحبه.

هكذا فعندما تستكمل الجماعة كل أبعادها الضرورية ويستغرق عملها كل نواحي الحياة ويغطي مشروعها جوانب الفراغ والخلل في المجتمعات التي تقوم فيها تكون قد أسهمت مساهمة فعّالة في إنضاج المشروع الإسلامي ككل، فكل تجربة إسلامية هي رصيد لأبنائها ولغير أبنائها، إنّ العاملين للإسلام اليوم يجب عليهم أن يثروا مشروعهم ويتعاونوا فيما بينهم وإن اختلفوا على تحديد الهموم الكبرى التي تشغل بالهم وعلى تذليل المصاعب التي تعوقهم جميعا وعلى التصدي لكل الأفكار والمشاريع التي تريد أن تنال من أحقية ومشروعية المشروع الإسلامي.

فتعاون الحركات والطاقات الإسلامية تعاون ذو مستويين: مستوى أول؛ بترشيد التجربة الذاتية وتنقيتها من الشوائب وتطعيمها بخبرات الآخرين.. ومستوى ثان؛ بالاتفاق على صد كل تهجّم على الإسلام كدين له قدسيةً ومكانة وقيمة على أن يكون ذلك التعاون محكوماً بضوابط الشريعة سائراً على منهجها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

عن مجلة الفجر

تم تنـزيل هذه المادة من منبر التوحيد والجهاد

http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.com
http://www.alsunnah.info